ISSN: 2090 – 0449 Online
Universal Impact Factor (UIF), 2015.
Impact Factor for Arabic Scientific Journals, 2016.

المنهج النقدي وممارسته في الكتابة التاريخية العربية الإسلامية
من البدايات إلى ابن خلدون

محمد أبـجي
باحث في التاريخ وطرق تدريسه
كلية علوم التربية – جامعة محمد الخامس
الرباط – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يتلخص موضوع هذه الدراسة في محاولة استعراض الممارسة النقدية في الكتابة التاريخية العربية الإسلامية، حيث أبرزنا فيها منطلقات نقد الخبر التاريخي، وارتباطه بعلم الجرح والتعديل، ثم أشرنا فيها إلى خطواته، واستعرضنا فيها لممارسة هذا المنهج من طرف بعض المؤرخين المسلمين إلى حدود ابن خلدون؛ إذ أبرزنا مدى تطبيق هذا المنهج من طرفهم، وكذا النواقص التي اعترت تطبيقهم له، وقد اتضح لنا أن تطبيق منهج نقد الخبر التاريخي يختلف حسب المرحلة التاريخية التي يكتب عنها كل مؤرخ، حيث كان لفترة صدر الإسلام الأهمية القصوى والحرص الكبير لتطبيق هذا المنهج، خاصةً في ما يتعلق بأخبار الرسول، وكلما ابتعدنا عن فترة صدر الإسلام في الاتجاهين فإن تطبيق منهج نقد الخبر تتفاوت من مؤرخ لأخر، لكن المثير للانتباه هو عدم اقتناع ابن خلدون بل ورفضه لمنهج نقد الخبر كوسيلة وحيدة لتمحيص الأخبار.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٤ ديسمبر ٢٠١٣
تاريخ قبـول النشـر: ٣ مارس ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

النقـد التـاريخي، السـير والمغـازي، علـم التـاريخ، المؤرخـون والتـاريخ، الكتابة التاريخية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد أبجي. "المنهج النقدي وممارسته في الكتابة التاريخية العربية الإسلامية: من البدايات إلى ابن خلدون".- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٦. ص٩٩ – ١٠٥.

مُقَدِّمَة:

ارتبط علم التاريخ عند العرب المسلمين في صدر الإسلام بتطور الحركة الفكرية الإسلامية، فبديات علم التاريخ خلال هذه المرحلة سار في اتجاهين؛ الاتجاه الإسلامي الذي ظهر عند أهل الحديث، والاتجاه القبلي الذي هو استمرار التراث القبلي لما قبل ظهور الإسلام.[١] ويشير الباحثون عادةً إلى هذين الاتجاهين بمدرسة المدينة ومدرسة العراق، وقد حصل تأثير متبادل بين الاتجاهين، إلا أن الاتجاه الإسلامي كانت له الغلبة على اعتبار أن العامل الديني العقدي كان الدافع الأول للتدوين التاريخي، نظرًا لدور علم التاريخ كعلم مساعد للعلوم الدينية حيث كان يهدف أساسًا إلى تحديد حكم شرعي لصالح فرد أو جماعة، لذلك نجد أن عددًا كبيرًا من المؤلفين في التاريخ من الفقهاء.[٢] وكانت سيرة الرسول وغزواته المادة التاريخية التي اشتغل عليها المؤرخون (مدونو التاريخ)، وبما أن الحوادث المدونة قريبة العهد، لا تتعد الجيل أو الجيلين اعتمد المؤلفون على النقل والرواية أي على شهادة المعاصرين للأحداث، ترتكز على نقد الشهادات اعتمادا على أمانة الشاهد.[٣] فما هي أهم خطوات وخصائص النقد التاريخي الإسلامي في العصر الوسيط الإسلامي؟ وإلى أي حد التزم المؤرخون المسلمون بهذا المنهج؟

أولاً: منهج النقد التاريخي عند المسلمين

يقصد بالنقد التاريخي عند المسلمين نقد الخبر أي معرفة الخبر الصحيح من الزائف، وقد ظهر في البيئة الإسلامية بشكل مبكر مع ظهور رواية الخبر خاصةً الأخبار التي تروى عن الرسول، حيث الحاضر يبلغ الغائب فكان السماع ثم الأداء.[٤] إن نقد الخبر ظهر منذ عصر مبكر بظهور رواية الخبر، إذ أن كل رواية تتطلب البحث عن رويها، ومدى صلاحيته للرواية، وصار

النقد جنبًا إلى جنب مع الرواية، ولكن مجاله كان أضيق من مجال الرواية خاصة في عهد الرسول وعصر خلفاءه، ويبدو أنه لم يمارس بعناه تمييز الصحيح من الزائف إلا بعد انقسام المسلمين وقيام الفتنة الكبرى حوالي ٣٠ هجرية، ولقد بدأ بنقد السند (الجرح والتعديل) فتمّ البحث في الجرح وأسبابه ودرجاته بعد أن أصبح الجرح والتعديل علمًا ذا قواعد وأصول، الذي يغلب الظن أنه لم يظهر كعلم ذو قواعد وأصول إلا في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.[٥]

ويمكن إجمال خطوات النقد التاريخي (نقد الخبر) عند المسلمين في ما يلي:

١/١- نقد السند:

مفهوم السند: لغتا: المُسْنَد من الحديث ما أُسنِد إلى قائله.[٦] وسند إليه سَنُودا :ركن إليه، واعتمد عليه واتكأ. وسُنِدَ الحديث إلى قائله: رفعه إليه ونَسبه.[٧] واصطلاحًا: سلسلة الرجال (الرواة) الموصلة للمتن.[٨]

- خطوات نقد السند:

١- البحث عن مصدر الخبر؛ من أين سمع الراوي هذا الخبر؟ ومن الذي نقله إليه ؟ وكيف نقل إليه؟[٩] إذ بمعرفة النقلة تُعرف قيمة الخبر، حيث أن الأخبار المسندة يمكن التحكم في نقدها وفحصها بصورة أفضل من الأخبار الخالية من السند مما يمكن من محاربة الوضع والكذب في الأخبار.[١٠]

٢- التحقق من نسبة الخبر إلى ناقله؛ هل الراوي نقل الخبر من مصدره الأصلي مباشرة أم عن مصدر نقل عن المصدر الأصلي؟ أوعن مصادر أخرى غير مباشرة؟ وهل حقيقة التقى بمن روى عنه أولا؟ ويتم ذلك بمعرفة تاريخ وفاة الراوي، ومولد من روى عنه للتأكد من إمكان اتصال الراوي بمن روى عنه، ومعرفة بيئة الراوي وبيئة من روى عنه وعصرهما، ودرجة اتصال بعضهما ببعض.[١١]

٣- نقد الراوي؛ هل هو صالح للنقل والأداء؟ وأساس نقد الراوي الشك في عدالة الناقل وضبطه.[١٢] ومن تم كانت شروط قبول الرواية؛ العدالة: أي أن يكون الراوي مسلما، بالغا، عاقلا، صادقا، بريئا من أسباب الفسق، سليما من خوارم المروءة. والضبط: أي إتقان ما يرويه الراوي، حافظا لروايته إن روى من حفظه، ضابطا لكتابه إن روى من الكتاب، عالمًا بمعنى ما يرويه، متيقظا غير مغفل.[١٣]

٢/١- نقد المتن:

مفهوم المتن: لغتا: ما صَلُب من الأرض وارتفع،[١٤] اصطلاحا: ما ينتهي إليه السند من الكلام.[١٥]

- خطوات نقد المتن:

١- تصحيح المتن؛ أي إصلاح المتن وهذا لا يتأتى إلا باستبعاد ما فيه من أغلاط، وهذه العملية النقدية تسمى "التصحيف والتحريف"، وهذه الخطوة لا تؤدي إلى استعادة الأصل، لأن النتيجة التي يصل إليها هذا النوع من النقد هو أن المتن بعد تصحيحه أصبح خاليًا من الأخطاء، لا صحيحًا ولا مفهومًا.[١٦]

٢- (التفسير/التأويل)؛ وهو نوعان: أولهما (تفسير/ تأويل) ظاهري ويتم ذلك بالإلمام بلغة الأصل وفهمها كما استعملت في العصر الذي عاش فيه راوي الرواية، وثانيهما هو إدراك غرض المؤلف.[١٧]

٣- معرفة الصحيح من الزائف: وهذه المرحلة أهم مرحلة لنقد المتن على اعتبار أن الخطوتين السابقتين ليستا سوى تمهيد لهذه الخطوة.

وكما سبق وأن أشرنا إلى أن التدوين التاريخي في لدى المسلمين اتخذ اتجاهين؛ الاتجاه الأول الذي تمثله **مدرسة المدينة** التي اتخذت من السيرة والمغازي موضوعًا لها ويتزعمه أهل الحديث، والاتجاه الثاني وهو الاتجاه القبلي الذي هو امتداد للتيار القبلي الذي ساد قبل الإسلام ويمثل أيام العرب وأخبارها ويسمى بـ **مدرسة العراق**، فإلى أي حد انضبط الاتجاهين لمنهج النقد التاريخ الإسلامي؟

ثانيًا: مدرسة المدينة: اتجاه السير والمغازي

كان علم التاريخ عند المسلمين في البداية وثيق الصلة برواية الحديث وتفسير القران الكريم، وذلك لأن المسلمين عندما اشتغلوا بجمع القران وتفسيره ودراسة الأحاديث النبوية احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التي نزلت فيها الآيات والمشاهد التي وردت فيها الأحاديث، ولذا عمدوا إلى جمع أخبار السيرة النبوية وأخبار الغزوات.[١٨] بدأت دراسة "مغازي" الرسول في المدينة ضمن دراسة الحديث. ومع أن المحدثين استمروا على اهتمامهم بالمغازي، إلا أن بعضهم أخذ يعني بدراسة حياة الرسول بشكل يتعدى الاقتصار على نواحي التشريع. وكان رواد دراسة المغازي محدثين، وهذا ما يفسر أهمية الإسناد في تقدير قيم المغازي أي ربط قيمة الحديث أو الرواية بمنزلة المحدثين أو الرواة، أو مصادر المعلومات، وأدخل عنصر البحث والتحري في جمع الروايات، وكون أساسًا متينًا للدراسات التاريخية،[١٩] لتصبح السير والمغازي اتجاهًا تاريخيًا مستقلاً، ونورد أهم رواد هذا الاتجاه ومنهجهم لنقد الخبر التاريخي:

٢/١- عروة بن الزبير بن العوام (٢٣هـ - ٩٤ هـ /٧١٢م): أول مَنْ ألف في المغازي أي كتب كتابًا حول حياة الرسول، كما كتب الرسائل حول أحداث الإسلام،[٢٠] اتبع أسلوب أهل الحديث في رواياته أي أنه استعمل الإسناد في بعض رواياته كما لم يستعمله في روايات أخرى والتي يثق فيها بالرواة الذين أخذ عنهم أمثال عائشة وآل الزبير.[٢١] أسلوب عروة بسيط في التأليف، بعيد عن الإنشاء، نظرته واقعية وصريحة وخالية من المبالغات، مكنته منزلته الاجتماعية من الحصول على معلومات تاريخية من مصادرها الأولية وخاصةً من عائشة وآل الزبير.[٢٢]

٢/٢- الزهري (توفي في ١٢٤ هـ/ ٧٤٢م): وأُختلف في تاريخ ولادته وقيل ٥٠ أو ٥١ أو ٥٦ هجرية، كتب مغازي الرسول وأعطى السيرة النبوية إطارها الذي نعرفه إلى اليوم وتناول عهد الراشدين ومطلع الأيام الأموية بأسلوب تقصى فيه الأخبار من أصحابها.[٢٣] أسند الزهري رواياته، واشتهر بقوة إسناده، ونظرته في ذلك تمثل نظرة عصره، حيث نجده يُعّد رواية التابعين أحيانًا وافية بشروط الإسناد. ولكنه أدخل شيئًا جديدًا هو الإسناد الجمعي، حيث يدمج عدة روايات في خبر متسلسل، كما أنه كتب رواياته ويكون بذلك أول مَنْ فعل ذلك بصورة منظمة، وكانت تتصف بالصراحة ويندر فيه ما نشاهده لدى المؤرخين في ما بعد من مبالغة.[٢٤] وكان يبذل جهودًا متواصلة للتعرف على أحاديث الرسول وأصحابه فكان يغشى المجالس ويزور الأشخاص في دورهم للعثور على حديث أو خبر موثوق.[٢٥]

٣/٢- وهب بن منبه (توفي غالبًا سنة ١١٤ هجرية): هو الذي بدأ القصص التاريخي، ويسوق رواياته بأسلوب قصصي دون سند،[٢٦] ولم يكن دقيقًا، بل أنه لم يترفع عن الادعاء الكاذب. ولذا فإنه يُعَدّ إخباريًا قاصًا، ويُعَدّ السخاوي أخباره غير جديرة بالمؤرخين الجديين، وقد جاء باتجاه منحرف ضعيف بالنسبة إلى وجهة المحدثين في المدينة، وجعل من الإسرائيليات مادة لتاريخ ما قبل الإسلام.[٢٧]

٤/٢- ابن إسحاق (٧٥هـ - ١٥١ هـ): أبرز مؤرخي السيرة وأحد أعمدة مدرسة المدينة التاريخية، وقد تقصى أخباره الكثيرة والمتنوعة من شيوخه ومن العارفين في المدينة.[٢٨] ومع ابن إسحاق عرف كتابة التاريخ في مدرسة المدينة تطورات جديدة من مظاهرها وجود عنصر القصص الشعبي والاتجاه نحو المبالغة، وبذلك انتقلنا إلى علماء هم مؤرخون أولاً، ثم محدثون من الدرجة الثانية.[٢٩] أما على مستوى منهج نقد الخبر فيبدوا أنه طبق كثيرًا من قواعده تطبيقًا تامًا على أخبار السيرة، ولكن اختلفت دقته في التطبيق، وتفاوتت باختلاف وتفاوت الفترات الزمنية التي تناولها في كتاباته وباختلاف نوع الخبر وأهميته، فأخبار ما قبل الإسلام التي أطلق عليها ابن إسحاق "المبتدأ" يغلب على أخبارها المبالغة وغير موثوق بصحتها لان أغلبها مروى عن وهب بن منبه. فما يلاحظ على ابن إسحاق في روايته لأخبار فترة ما قبل الإسلام عدم الدقة إلى حد ما في تطبيق قواعد منهج النقد التاريخي الإسلامي وكانت أسانيده لا تنتهي إلى الشاهد الحقيقي الذي شهد الواقعة ورآها، أو رأى مصدرها المباشر. أما الأخبار التي تتصل بالنبي وأهل بيته أو دعوته، أو التي تروي في هذه الفترة فنلحظ عليه في روايتها الدقة إلى حد ما في استعمال الإسناد والاحتياط في النقل والأداء. ويبدو أن دقة ابن إسحاق في تطبيق منهج النقد التاريخي الإسلامي قد بلغت أعلى درجة لها عند روايته لأخبار فترة الرسالة والأخبار الصادرة عن الرسول. وأن شروط نقد السند عند ابن إسحاق إذا قيست بمقاييس أهل عصره اعتبرت صحيحة ودقيقة دقة العصر في النقد والرواية، ولكنها إذا قيست بمقاييس بعض المتأخرين عنه اعتبرت غير دقيقة.[٣٠]

٥/٢- الواقدي: محمد بن عمر الواقدي (١٣٠هـ/ ٧٤٨م - ٢٠٧هـ/٨٢٣م): تطورت الدراسات التاريخية معه، فكتابه المغازي اقتصر فيه على الفترة المدنية، ويتمشى بدقة أكثر من ابن إسحاق مع مدرسة المدينة في المادة والأسلوب، فهو منتظم ومنطقي في تناوله مادته، وفي أسلوبه أكثر دقة من ابن إسحاق في استعمال الإسناد وفي تحقيق تواريخ الحوادث.[٣١] أما في ما يخص منهج النقد عند الواقدي فقد كان أشمل وأدق من سلفه ابن إسحاق ويرجع ذلك إلى كون هذا المنهج قد بدا ينضج في عصر الواقدي في حين كان في طور النشأة في عصر ابن إسحاق، حيث كان يعطي قائمة مصادره عن كل غزوة واستعماله الإسناد غالبًا ما ينتهي إلى الشاهد الحقيقي الذي شهد الواقعة واشترك فيها.[٣٢] وتبدو نظرته النقدية أكثر في زيارته لمواقع المعارك ليكمل بذلك مادته، وفي تمحيصه للمواد التي وصلت إليه، وفي بحثه عن وثائق جديدة.[٣٣] وعدم وقوفه موقف السلب في ما يخص الروايات التي تبدوا متناقضة ولكنه مال إلى ترجيح بعضها على بعض ويتضح ذلك في استعماله عبارة "والثبت عندنا". واحتياطه في رواية الأخبار الأدبية كالشعر واقتصاده في روايتها.[٣٤] وإذا كان أهل الحديث لا يقبلون كل القبول بالواقدي، فالمؤرخون يوثقونه. أما المستشرقون فيرون فيه بسب تدقيقه الزمني والجغرافي واعتماده الوثائق المؤرخ الأول.[٣٥]

٦/٢- ابن سعد (توفي في ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م): ألف كتاب الطبقات الكبرى؛ في القسم الأول منه "أخبار النبي"، يضع الخطوط الأخيرة لهيكل السيرة؛ إذ ذهب أبعد من الواقدي في تنظيم مادته وتبويبها، وفي إعطاء مجموعة أوفى من الوثائق.[٣٦] ويمكن تقسيم أخبار هذا الكتاب زمنيًا إلى أخبار النبي، وأخبار ما بعد النبي. وفي ما يخص منهجه في النقد؛ ففي ما يخص أخبار النبي فقد تميز بالتزامه الإسناد في غالب أخبار كتابه سواء في الأخبار التي تتصل بالنبي أو عصره والتي تدخل تحت خبر النبي، وإسناده ينتهي في الغالب إلى الشهود الحقيقيين أو شهود العيان. وتميز أيضًا بالأمانة في النقل والأداء؛ فعندما يروي أخبارًا بأسانيد مختلفة، وفي بعضها زيادة عن بعضها الآخر ينقل لنا الأسانيد كما سمعها، وينص على ما فيها من زيادة أو نقصان، كما أقتصد ودقق في رواية الخبر الأدبي خاصةً الشعر، وإذا أورد شيئًا منها يذكر مصادره فيها ويستعمل الإسناد كثيرًا في روايته لأخبارها، وإسناده ينتهي غالبًا إلى الشاهد الحقيقي للمصدر الأصلي للخبر. أما ما يخص أخبار ما

بعد النبي فقد تميز منهجه النقدي بإشارته بمصادر أخباره التي كان أهمها أستاذه الواقدي، وأستعمل الإسناد، ونقله الأخبار وأداءها بأمانة.[٣٧]

ثالثا: مدرسة العراق: الاتجاه القبلي

لما بدأ علم التاريخ عند العرب بعد ظهور الإسلام كان قصص الأيام والأنساب التي شكلت حيزًا هامًا من اهتمام العرب قبل الإسلام لا يعدوا كونها روايات لا تنطوي على فكرة تاريخية سارت الدراسات التاريخية في بداياتها -كما سبق أن اشرنا إلى ذلك- في اتجاهين سُميا مدرسة المدينة وقد سبق أن فصلنا فيها، ومدرسة العراق التي تمثل الاتجاه القبلي والتي تمركزت في البصرة والكوفة اللتان اختطهما العرب وانتقلوا إليها ونقلوا إليهما عادتهم الجاهلية وأخلاقهم العربية، فانقسموا فيهما قبائل وبطون وأفخاذ، وأقاموا فيها أسواقا أدبية مثل أسواقهم في الجاهلية للمفاخرة والمناظرة والمناشدة. وقد شجع الأمويون تلك النهضة الأدبية والفكرية خاصةً في ما يتعلق بعادات العرب في جاهليتهم، ولأن العربية لغة الدولة والدين، أصبحت أيضًا لغة الدواوين اشتدت الحاجة إلى ضبطها وجمع ألفاظها واشتدت الحاجة إلى ضبط انساب العرب وأيامها وعلوم القران والحديث والفقه. كما أضاف العرب في هذين المصرين عناصر ثقافية عرفها العرب بعد الإسلام وهذه العناصر تتمثل في الفتوحات وأيامها والعصبيات السياسية القبلية التي فجرها التنازع حول السلطة، والشعبوية التي نمت لدى الشعوب المغلوبة خاصة الفرس، كل هذه العوامل والظروف ساهمت في بزوغ هذا الاتجاه في التدوين التاريخي الذي يعتبر ظهوره حسب عدد من النقاد مرحلة الانتقال من الرواية الشفوية إلى الرواية المدوّنة.[٣٨] ونورد في ما يلي أهم رواد هذا الاتجاه ومنهجهم في نقد الخبر والرواية التاريخيين:

١/٣- أبو مخنف لوط بن يحيى (توفي سنة ١٥٨هـ): إخباري كوفي كتب عن الردة وعن فتوح الشام والعراق، والشورى، وصِفين، وعن الحوادث التالية في العراق حتى نهاية العصر الأموي وبخاصةً الثورات والمعارك... استعمل أبي مخنف الإسناد بشيء من التسامح ويعتبره المحدثون ضعيف الإسناد، واستعمل الروايات العائلية عن صفين خاصة، واعتمد بكثرة على روايات قبيلته الأزد، كما أنه استفاد من الروايات الكوفية الأخرى، ... ونلاحظ أن سلاسل رواياته كثيرة وتتبدل بتبدل الحوادث. ويورد أبو مخنف عادة الصورة العراقية الكوفية للحوادث، فهو أميل للعراق تجاه الشام، نتيجة اعتزاز القبائل بمصرها، كما أنه أميل للعلويين تجاه الأمويين، كما أن اعتزاز القبائل بمآثرها ينعكس أحيانًا في رواياته، ولكن أخباره على العموم ليست متحيزة، كما نجد أسلوبه يعكس أثر مجالس السمر وشيئًا من وجهة قصص الأيام.[٣٩]

٢/٣- عوانة بن الحكم (توفي في ١٤٧هـ/ ٧٦٤م): إخباري كوفي، من كتبه كتاب التاريخ يتناول فيه أحداث التاريخ الإسلامي في القرن الأول الهجري، وكتاب سيرة معاوية وبني أمية. والروايات التي وردت في كتابيه تكشف معرفة قوية بدخائل العهد الأموي، على أنه لا يتعصب للأمويين وإن حسب عليهم، لأنه في الواقع لا يهمل الآراء المعارضة لهم ولا الروايات العراقية والمدنية.[٤٠] كانت خطته في الكتابة على أساس التسلسل التاريخي، أو على سيرة الخلفاء تمثل خطوة لها دلالتها في تطور الكتابة ضمن الاتجاه القبلي، استعمل الإسناد بصورة مفككة كما أن طريقة إيراده الشعر في أخباره تعكس أثر أسلوب قصص الأيام.[٤١]

٣/٣- سيف بن عمر (توفي ١٨٠ هـ/٧٩٦م): إخباري كوفي، روي عنه كتابان أحدهما عن الردة والفتوحات والثاني عن الفتنة ووقعة الجمل، وأخباره في الكتابين مستقاة من روايات قبيلة تميم ولهذا ظهرت فيها نظرتها القبلية والميول العراقية بشكل عام كما يظهر فيها القصص العاطفي على أسلوب الأيام، وسيف متهم عن كمعظم الإخباريين في رواية الحديث ولكنه عند الطبري موثوق في الأخبار.[٤٢]

٤/٣- نصر بن مزاحم (توفي في ٢١٢ هـ/ ٨٦٧م): إخباري كوفي شيعي، تناول عدة موضوعات منها وقعة الجمل وصفين ومقتل الحسين وأخبار المختار ومناقب الأئمة...،[٤٣] ويلاحظ أن عنايته بالتواريخ ضعيفة، ويستعمل الإسناد بكثير من التساهل، أما أسلوبه في الكتابة فهو مثل واضح لأسلوب قصص الأيام.[٤٤]

٥/٣- المدائني: (١٣٥هـ- ٢٢٥هـ/ ٧٥٢م - ٨٣٩م) يمكن اعتباره قمة الطور الإخباري السابق للتأريخ. وقائمة كتب المدائني تجعله أول قائمة المكثرين من التأليف في الإسلام.[٤٥] يعطي أكثر من رواية حول الموضوع الواحد؛ وبالتالي يعطينا صورة واقعية من خلال نقده لرواياته وإثباته أسانيده.[٤٦] يمثل المدائني درجة أعلى من أسلافه في البحث والدقة، ويظهر أنه اتبع أسلوب المحدثين في نقد الروايات، لذا صار يتمتع بثقة أكثر من أسلافه، جاء المدائني بأخبار أوفى أو أكثر توازنا ممن سلف عن الحوادث والموضوعات التي تناولها. وقد أيد البحث الحديث دقته.[٤٧]

رابعًا: كبار المؤرخين

عرف النصف الثاني من القرن الهجري ظهور مؤرخين لا تَحُدهم مدرسة أو اتجاه من الاتجاهين السالفي الذكر، بل حاولوا الاستفادة من مواد السيرة ومن كتب الإخباريين ومن كتب الأنساب ومن المصادر الأخرى المتيسرة، وشملت دراساتهم الأمة الإسلامية بصفة منظمة وكان عملهم انتقاء المادة بعد النقد وأفقهم عامًا أو عالميًا.[٤٨] وسنوضح في ما يلي أسلوب ومنهج النقد لدى بعض هؤلاء المؤرخين:

٤/١- ابن قتيبة الدينوري (٢١٣- ٢٧٠هـ/ ٨٢٨-٨٨٣م): من مؤلفاته عيون الأخبار والمعارف. ففي كتابه المعارف يمزج فيه مختلف خطوط الكتابة التاريخية المختلفة. واستفاد في كتابته من مصادر مكتوبة وروايات شفوية، ويلاحظ أن من ذكر من مصادره لهم منزلة عالية في حقول دراستهم مثل ابن إسحاق والواقدي...[٤٩] تميز ابن قتيبة بحس نقد جعله لا يقصّر نقده على مصادره بل يتعدى ذلك إلى المعلومات الواردة، مع إيراد الآراء السائدة في عصره.[٥٠] وإجمالاً لم يطبق ابن قتيبة في أخبار كتابه المعارف كل قواعد المنهج التاريخي الإسلامي تطبيقًا تامًا، إذ أهمل الإسناد في كثير منها، أما بالنسبة للأخبار التي يغلب عليها الندرة والطرفة فنلحظ عليه في رواياته لها التزامه الإسناد.[٥١]

٤/٢- البلاذري:(توفي في ٢٧٩هـ/٨٩٢م) له كتابان مهمان هما فتوح البلدان وأنساب الأشراف، فالنسبة للكتاب الأول فقد أخذ البلاذري مادته من الكتب الخاصة بفتوح مصر والمواد التي استطاع جمعها خلال زيارته للأمصار، وطريقته في الكتابة تكمن في أنه ينتقي المادة بعد الغربلة والنقد، ويعطي صورة متزنة عن الحوادث، مع تجنب إيراد روايات متعددة حول الحادث. يعتمد كثيرًا على روايات المدينة التي تتصف بالحياد والدقة أكثر من غيرها. أما كتابه أنساب الأشراف وهو كتاب عام للتاريخ الإسلامي، فخطته تجمع بين أساليب كتابة كتب الطبقات وكتب الأخبار وكتب الأنساب، ينقد فيه مصادره قبل الأخذ عنها، وفي انتقاءه لمادته التاريخية يعطي أهمية خاصة للروايات التي تعود للمنطقة التي وقع فيها الحادث. [٥٢] تمسك البلاذري بالإسناد ودقته في فتوح وأخبار النبي حيث شدّد ودقّق في الرواية والتزام الإسناد، أما في ما يتعلق بأخبار ما بعد النبي فقد التزم الإسناد في عامة أخبار كتابه.[٥٣] وعلى الرغم من الاتصال المباشر للبلاذري بالبلاط العباسي فإن أخباره محايدة لا تضيق بالموضوعية ومتزنة لا تشرد وراء الاستطراد والهوى.[٥٤]

٤/٣- اليعقوبي (توفي سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م): مؤرخ من طبقة الكتاب يجمع بين ثقافة واسعة وخبرة علمية في الإدارة،[٥٥] له كتب متعددة منها "تاريخ اليعقوبي"، و"كتاب البلدان". وتاريخ اليعقوبي فهو موجز تاريخي منظم يتناول التاريخ العالمي منذ الخلق حتى سنة (٢٥٩هـ/ ٧٨٢م). أما في ما يخص مصادره في هذا الكتاب فنراه يعتمد في قسم التاريخ القديم يرجع إلى المصادر الأصلية كالكتاب المقدس مثلاً، وحين يتحدث عن التاريخ الفارسي لا ينسى أن ينبه القارئ إلى أن مادته أسطورية وبالتالي يصعب الوثوق بها، وفي مجال كتابته عن اليونان يعتمد اليعقوبي الكتب اليونانية المترجمة.[٥٦] أما في قسم التاريخ الإسلامي فإن اليعقوبي يتبع أسلوب الانتقاء من الروايات بعد التدقيق، وهو يبين أنه راجع إلى ما رواه الأشياخ المتقدمون من العلماء والرواة وأصحاب السير والأخبار والتأريخ، ووجد أنهم اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم فحاول أن يمحصها وأن يأخذ أجمع المقالات والروايات وأن يؤلف بينها لكتابة تاريخه. في هذا القسم من كتابه الخاص بالتاريخ الإسلامي لا يرى اليعقوبي ضرورة لإعطاء الأسانيد وذلك لأن النظرة إلى الأسانيد التاريخية الهامة استقرت قبله، ونلاحظ أن اليعقوبي متزن في أخباره وبصورة عامة دقيق في ما أورد من معلومات.[٥٧] ورغم تشيعه فإنه لا يعتمد المصادر الشيعية وحدها، ولكن تعدى ذلك إلى غيرها من المصادر التي تمثل وجهات نظر المدارس الإسلامية المختلفة.[٥٨]

٤/٤- الطبري (توفي في ٣١٠هـ/٨٩١م): صاحب كتاب تاريخ الرسل والملوك الذي يمثل قمة ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند العرب في مدة التكوين، فقد كان الطبري طالب علم لا يعرف الكلل، وقد بلغ في علمه بالروايات التاريخية والروايات الفقهية منزلة لا تبارى. وكانت نظرته للتاريخ وأسلوبه في كتابته متأثرة بدراسته وثقافته كمحدث وفقيه، ولذا فإن طريقته في نقد الروايات تتجه إلى الإسناد، في حين أن مصادره مؤرخون لهم منزلة موثوقة في حقولهم وأوفي الموضوعات التي كتبوا عنها. وقيمة الروايات عنده تعتمد على قوة أسانيدها، وكلما كان بدء السند أقرب إلى الحادثة كان أفضل بالنسبة إليه.[٥٩]

٤/٥- ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٣٨٢م): من أشهر كتبه كتاب "المقدمة"، وهو مقدمة لكتابه في التاريخ "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" وقد تضمنت هذه المقدمة أهم أراء وأفكار ابن خلدون في مجال التاريخ خاصةً على مستوى المنهج النقدي للتاريخ، وذكر في ذلك الشروط والضوابط التي ينبغي أن يلتزم بها المؤرخ في نقله للأخبار حيث قال: "اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية ؛إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم. والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم؛ حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لَمَنْ يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المذلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق. وكثيرًا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًا أو سمينًا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على

طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط؛ ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر؛ ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد".[٦٠]

كما انتقد طريقة المؤرخين المسلمين في نقل الأخبار، وانتقد جمعهم للروايات دون منهج خاص يفرق بين الأسطوري والحقيقي من الأخبار؛ حيث كانت الأحداث تروى على علاتها دون تمحيص أو تدقيق، فالأغلبية من المؤرخين استوعبوا بلا نقد مادة التاريخ المنقولة إليهم بطريقة الاتباع،[٦١] وفي هذا يقول: "وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وَهَموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المُضْعَفَة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثيرُ ممن بعدهم واتبعوها، وأدَّوْها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا تُرّهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطَرْف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار خليل"[٦٢]

كما حذر ابن خلدون من المزالق التي يقع فيها المؤرخين وحدد الأسباب التي تؤدي إليها بقوله: "ولما كان الكذب متطرقًا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه. فمنها التشيعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله. ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضًا الثقة بالناقلين، وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح ومنها الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب. ومنها توهم الصدق وهو كثير، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين. ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع، فينقلها المخبر كما رآها، وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه. ومنها تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة، فالنفوس مولعة بحب الثناء، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها. ومن الأسباب المقتضية له أيضًا وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الأحوال في العمران، فإن كل حادث من الحوادث ذاتًا كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله، فإذا السامع عارفًا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها، أعانه ذلك تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض".[٦٣]

قد أسترسل الباحثون في استنباط أهم أفكار ابن خلدون النقدية في مجال التاريخ ونذكر بعضها في ما يلي:

- يرفض الإسناد منهجا للتاريخ، ليخرج بذلك عن تقليد متداول منذ قرون ويرفع مفهوم التاريخ إلى مستوى إنتاج التاريخ. ودعا إلى رد علم التاريخ إلى قوانين التاريخ والمجتمع (طبائع العمران) ووضع حد لاستنساخ لا ينتهي لأنماط السرد والخبر.[٦٤]
- إن الإسناد عبر الجرح والتعديل يفيد حقيقة الخبر في علوم الحديث، ويمكن تطبيقه أيضًا على الخبر التاريخي، لكنه غير كاف لتمحيص الخبر المتعلق بالاجتماع الانساني، وهنا يضيف ابن خلدون تأسيسًا على البرهان العقلي والمعرفة التجريبية معيار "الممكن والممتنع".[٦٥]
- أسلوب الجرح والتعديل أسلوب أضحى بعد عدة قرون من ممارسته في كتب التواريخ والأخبار (بعد القرن الثالث للهجرة) أسلوبًا تكراريًا وتقليديًا يفتقد روح النقد العلمي التي انطلق منها في القرن الثاني للهجرة ويقدم إلى الأهواء السياسية والصراعات التي عصفت بالمجتمع الإسلامي مرجعية جاهزة للتبرير ووضع التواريخ وفقًا للإرادات الذاتية.[٦٦]

خاتمة

رواية ونقد الخبر قد طبق على التاريخ منذ نشأته وخاصة في الجانب الإسلامي منه أي السيرة والمغازي تطبيقًا تامًا. ولكن تفاوتت دقة بعض مؤلفي المغازي خلال القرنين الثاني والثالث في التطبيق تبعًا لاختلاف مصادر أخبارهم وفترتها الزمنية ونوعها، فدقتهم في رواية الأخبار التي تمس الرسول أو حياته أو النبوة عامة أعلى بكثير من دقتهم في رواية الأخبار التي لا تتصل بالرسول، وكان ابن سعد أدقهم نظرًا إلى دقة علماء عصر ابن سعد أصحاب هذا المنهج في التقنين والتقعيد، وبذلك يكون الربع الأول من القرن الثالث عصر نضوج نقد الخبر واكتماله.[٦٧] إلا أن هذا المنهج تعرض لمجموعة من الانتقادات من طرف ابن خلدون الذي يرفض الإسناد منهجًا للتاريخ، لأن منهج نقد الخبر في نظره غير كاف لتمحيص الخبر المتعلق بالاجتماع الإنساني.

الهَوامِشُ:

(١) الدوري عبد العزيز، **نشأة علم التاريخ عند العرب**؛ مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت ٢٠٠٧، ص١٨.
(٢) العروي عبد الله، **العرب والفكر التاريخي**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الخامسة، الدار البيضاء/ بيروت ٢٠٠٦، ص٨٠.
(٣) العروي عبد الله، المرجع نفسه، ص ٨٠.
(٤) موافي عثمان، **منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي**، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية. ص ١٠٤-١٠٥.
(٥) موافي عثمان، المرجع نفسه، ص١٠٦.
(٦) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، ط الثامنة، بيروت-لبنان،٢٠٠٥، ص٣٢٢.
(٧) مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، ط الرابعة – مصر ٢٠٠٤.ص٤٥٣-٤٥٤.
(٨) الطحان محمود، **تيسير مصطلح الحديث**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة ٩، ١٩٩٦ م.-١٤١٨هـ.ص١٦.
(٩) موافي عثمان، المرجع نفسه، ص١٧٣.
(١٠) أمحزون محمد، **منهج دراسة التاريخ الإسلامي**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١١م-١٤٣٢ هـ، ص٢٩-٣٠.
(١١) موافي عثمان، المرجع ، ص١٧٤ – ١٧٥.
(١٢) موافي عثمان، المرجع نفسه، ص١٧٥.
(١٣) أمحزون محمد، المرجع نفسه، ص ٤٠.
(١٤) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، المرجع نفسه، ص١٢٣٣.
(١٥) الطحان محمود، المرجع نفسه، ص١٦.
(١٦) موافي عثمان، المرجع نفسه،ص١٧٧.
(١٧) رستم أسد، **مصطلح التاريخ**، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، صيدا – بيروت ٢٠٠٢، ص٥٧.
(١٨) الحويري محمود محمد، **منهج البحث في التاريخ**، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات،٢٠٠١. ص١١٢.
(١٩) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص١٩.
(٢٠) شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون: دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام**. ج١، الطبعة الثالثة، دار الملايين بيروت، ١٩٨٣. ص١٥٢.
(٢١) ترحيني محمد أحمد، **المؤرخون والتاريخ عند العرب**، دار الكتب العلمية ودار الريف، بيروت لبنان (ب. ت) ص٤٤.
(٢٢) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٢٠.
(٢٣) شاكر مصطفى، المرجع نفسه، ص١٥٨.
(٢٤) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٢٢-٢٣.
(٢٥) ترحيني محمد أحمد، المرجع نفسه، ص٤٧.
(٢٦) شاكر مصطفى، المرجع نفسه، ص١٥٤-١٥٥.
(٢٧) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٢٤.
(٢٨) ترحيني محمد أحمد، المرجع نفسه، ص٥٠.
(٢٩) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٢٤.
(٣٠) موافي عثمان، المرجع نفسه، ص٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣.
(٣١) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٢٧.
(٣٢) موافي عثمان، المرجع نفسه، ص٢٠٦-٢٠٧.
(٣٣) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٢٨.
(٣٤) موافي عثمان، المرجع نفسه، ص٢٠٩-١١٠.
(٣٥) شاكر مصطفى، المرجع نفسه، ص١٦٦.
(٣٦) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٢٨.
(٣٧) موافي عثمان، **منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي**، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية. ص٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤-٢١٥.
(٣٨) ترحيني محمد أحمد، المرجع نفسه، ص٥٩-٦٠.
(٣٩) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٣١.
(٤٠) شاكر مصطفى، المرجع نفسه، ص١٧٩-١٨٠.
(٤١) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٣٢-٣٣.
(٤٢) شاكر مصطفى، المرجع نفسه، ص١٨٠.
(٤٣) ترحيني محمد أحمد، المرجع نفسه، ص٦٤.
(٤٤) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٣٤.
(٤٥) شاكر مصطفى، المرجع نفسه، ص١٨٦.
(٤٦) ترحيني محمد أحمد، المرجع نفسه، ص٦٦.
(٤٧) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٣٥.
(٤٨) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٤٢.
(٤٩) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٤٦.
(٥٠) ترحيني محمد أحمد، المرجع نفسه، ص٧٤.
(٥١) موافي عثمان، المرجع نفسه، ص٢٢٤.
(٥٢) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٤٢-٤٣.
(٥٣) موافي عثمان، المرجع نفسه، ص٢٢٠-٢٢١.
(٥٤) شاكر مصطفى، المرجع نفسه، ص٢٤٥.
(٥٥) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص ٤٤.
(٥٦) ترحيني محمد أحمد، المرجع نفسه، ص٧٧.
(٥٧) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٤٥.
(٥٨) موافي عثمان، المرجع نفسه، ص٢٢٦.
(٥٩) الدوري عبد العزيز، المرجع نفسه، ص٤٨.
(٦٠) ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية للطباعة، الطبعة الأولى، بيروت – صيدا،١٩٩٩، ص١٦.
(٦١) طحطح فؤاد خالد، **في فلسفة التاريخ**، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت– منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص٨٢.
(٦٢) ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، المرجع نفسه، ص١٠.
(٦٣) ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، المرجع نفسه، ص٤٠.
(٦٤) أومليل علي، **الخطاب التاريخي: دراسة لمنهجية ابن خلدون**، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء – بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥، ص٦-٧.
(٦٥) كوثراني وجيه، **تاريخ التأريخ: اتجاهات/ مدارس/ مناهج**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى ٢٠١٢، الدوحة – قطر، ص١٠١.
(٦٦) المرجع نفسه، ص١٠١.
(٦٧) موافي عثمان، **منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي**، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية. ص٢١٦.